

الفصل الأول: ماهية أصول الدين

تمهيد:

الإسلام هو خاتم الرسالات الإلهية، ومن أجل ذلك كان دعوة عالمية وديناً للناس جميعاً، وتكفل ببيان الأصول الاعتقادية، والمبادئ الخلقية، والتشريعات العملية التي من شأنها أن تنظم حياة الإنسان: في خاصة نفسه، وعلاقته بربه، وصلته بأسرته، وحقوقه وواجباته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه، حتى ينعم بالراحة والأمن في حياته، ويطمئن على مصيره بعد مماته. وإن من يتفحص ما جاء به الدين الإسلامي يجده ثلاثة أقسام:

[المبادئ الخلقية - الأحكام العملية - الأصول الاعتقادية]

١- المبادئ الخلقية: وموضوعها كل ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من الصفات التي من شأنها أن ينتج عنها صدور الأعمال الخيرة، كالوفاء والأمانة، والعدل والإحسان، والتواضع والتعاون، والعفو والتسامح، والتحابب والتآلف .

والغاية منها: نشر الفضيلة، والابتعاد عن الرذيلة، والعمل على إيجاد المجتمع الإنساني المثالي الواقعي. والعلم الذي يتكفل ببيان تلك المبادئ: هو علم الأخلاق والتصوف.

٢- الأحكام العملية: وموضوعها كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال، سواء أكانت عبادة أم معاملة، كالصلاة والجهد، والبيع والجنایات.

والغاية منها: تنظيم شؤون المجتمع الإنساني في كل ما تدعو إليه حياة الإنسان في كل زمان ومكان. والعلم الذي يتكفل ببيان هذه الأحكام: هو علم الشرائع والأحكام، أو علم الفقه.

٣- الأصول الاعتقادية: وموضوعها هو المعلوم من حيث أنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية المتعلقة بالله وصفاته وأفعاله، وما يتفرع عنها من مباحث النبوة، والمعاد . . .

والغاية منها: إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية، وإرشاد المتدينين بإيضاح الحجة لهم، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم، وحفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبهات المبطلين.

والعلم الباحث في أصول الاعتقاد: هو علم أصول الدين.

المبحث الأول: تعريف علم أصول الدين.

أولاً- أسماء هذا العلم وأسبابها:

سمي العلم الباحث في العقائد الدينية بأسماء مختلفة منها:

- **الفقه الأكبر:** سمّاه بهذا الاسم الإمام أبو حنيفة في كتابه (الفقه الأكبر)^(١)، حيث ذكر: أن الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم، لأن الفقه في الدين أصل، والفقه في العلم فرع، وفضل الأصل على الفرع معلوم).

- **علم النظر والاستدلال:** سمي بهذا الاسم لأنه يعتمد منهج النظر الفكري، والاستدلال العقلي وسيلة لإثبات أصول العقائد التي ثبتت بالنصوص الدينية.

- **علم التوحيد والصفات:** سمي بهذا الاسم لأن أشهر مباحثه، وأهمها وأخطرها مبحثا التوحيد والصفات الإلهية.

- **علم العقائد:** سمي بهذا الاسم لأنه يتكفل بمبحث العقائد الدينية، وإثباتها بالأدلة اليقينية، والدفاع عنها ضد العقائد والأفكار المخالفة لها.

- **علم الكلام:** اشتهر بهذا الاسم لعدة أسباب أهمها^(٢):

أ- إن أهم مسألة وقع الخلاف فيها، وانتد النزاع حولها في القرون الأولى، كانت مسألة (كلام الله) هل هو أزلي قائم بذاته، أم مخلوق حادث؟ فسّمي العلم باسم أهم مسألة فيه.

ب - أو أنه يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام بين الجانبين، وغيره قد يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب.

ج- ولعل أوجه الأسباب أن أصحابه (المتكلمين) تكلموا فيما كان السلف من الصحابة والتابعين يسكتون فيه، فالكلام ضد السكوت، والمتكلمون كانوا يتكلمون حيث ينبغي الصمت اقتداء بالسلف الذين لم يخوضوا في المسائل الاعتقادية إلا بحد ضيق.

أصول الدين: سمي بهذا الاسم لأنه أصل المعارف الدينية لا بتائها عليه وتفرعها عنه، ولأنه يتكفل ببيان ما يعتبر من أصول الدين وأركانه التي لا يتم إيمان بدونها.

ثانياً : تعريف علم أصول الدين.

سنعرف علم أصول الدين أولاً باعتباره مركباً إضافياً من كلمة (أصول) وهي المضاف وكلمة (الدين) وهي المضاف إليه، ونعرفه ثانياً باعتباره اسماً لعلم مخصوص من علوم الدين.

١ - كُتِب صغير، وقد شرح عدة شروح، وطبع عدة طبعات.

(٢) انظر: التفتازاني/ شرح العقائد النسقية ص ١٤-١٥ والمواقف وشرحه للسيد الشريف ١٦ وانظر أيضاً مصطفى عبد الرزاق/ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٦٧ وعبد الرحمن بدوي/ مذاهب الإسلاميين ج ١ ص ٢٨.

أصول: جمع. مفردها: أصل. ومعناها اللغوي: ما يبتنى عليه غيره سواء أكان الابتناء حسياً كالأساس الذي يشيد عليه البناء، فهو أصل له، أم كان الابتناء عقلياً كابتناء الأحكام الجزئية على القواعد الكلية. وقد تصرف العلماء في كلمة أصل فنقلوها من معناها اللغوي التي تدل عليه حقيقة، واستعملوها بعدة معانٍ مجازية أهمها (١): [ما يقابل الفرع - والقاعدة - والدليل - والراجع من الأمور].

الدين: اسم عام يطلق في اللغة على كل ما يتعبد الله به، كما يطلق على عدة معانٍ مختلفة منها: الطاعة والخضوع والاستسلام، والاستعلاء والملك والسلطان، والجزاء والحساب، والعادة والقضاء والمذهب والملة والشرعة^(٢).

وقد اعتبر كثير من الإسلاميين الدين والإسلام والملة والشرعة والمذهب كلمات مترادفة، فتراهم يقولون: دين الإسلام، وملة الإسلام، وشرعة الإسلام، ومذهب الإسلام^(٣).

- والحق أن الدين أعم من كل ذلك فهو أعم من الإسلام، إذ أن الإسلام دين، وليس كل دين إسلاماً، وهو أعم من الملة والشرعة، لأنهما اسم للعبادات والمعاملات دون العقائد، وهو أعم من المذهب، لأنه يراد به جملة من آراء اجتهادية استنبطها بعض علماء المسلمين وشمل بها جمهور منهم كالمذاهب المعروفة..... كان ذلك تعريف الدين بمعناه العام.

- وأما الدين بمعناه الخاص فيقصد به الإسلام، وهو المقصود في هذا البحث، قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩) وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ (الفتح: ٢٨).

ويأتي الإسلام في اللغة: بمعنى الطاعة والاستسلام والإذعان والانقياد، كما يأتي بمعنى السلام والأمان. وأما الإسلام في عُرف الناس واصطلاحهم: فهو الدين الذي شرعه الله لعباده على لسان خاتم رسله محمد ﷺ، فالذي تنقاد جوارحه ويصدق قلبه بما جاء به الرسول فهو **مؤمن**.

فالإيمان هو: (الإقرار باللسان والتصديق بالجنان)، وزاد جمهور المسلمين (العمل بالأركان)، وذهب

(١) انظر القاموس المحيط مادة (أصل) وارشاد الفحول ص ٣ ومباحث الحكم عند الأصوليين ص ٨ لمحمد سلام مذكور والأصول العامة ص ٣٩ للسيد محمد تقي الحكيم.

(٢) انظر القاموس المحيط، ولسان العرب، ودائرة معارف القرن العشرين، ج ٤، ص ١٠٦.

(٣) انظر: التعريفات ص ٩٤ للرجزاني.

فريق إلى أن العمل لازم من لوازم الإيمان، وليس دخيلاً فيه.

والأصل في تسمية هذا الدين بالإسلام قوله تعالى: ﴿وَمَرْضِيْتُ لَكُمُْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]

– بعد أن فرغنا من تعريف (أصول الدين) باعتباره مركباً إضافياً، نعرض تعريفاته باعتباره اسماً لعلم مخصوص من علوم الدين، وهو: [علم أصول الدين].

(وهو علم يُقْتَدَرُ معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج، ودفع الشبه).

والمراد بالعقائد ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام^(١).

المبحث الثاني: أصول الدين الإسلامي، [أركان الإيمان].

المراد بأصول الدين: هي القواعد التي يرتكز عليها الدين، والأسس التي يقوم عليها الإيمان بحيث إذا فقدت أو فقد إحداها لا يكون إيمان، والتي يطلق عليها أركان الإيمان.

وقد اختلف المسلمون فيما يعتبر من الأصول من تلك الأركان وما لا يعتبر منها، ولذا سأذكرها عند أهم الفرق الإسلامية، ثم نبين ما اتفقوا على اعتباره منها وما انفردت به كل فرقة، وسيتكون هذا المبحث من المطالب التالية:

المطلب الأول: أركان الإيمان عند أهم الفرق الإسلامية.

المطلب الثاني: أصول الدين [أركان الإيمان] التي أجمع عليها المسلمون.

المطلب الثالث: الأصول المختلف فيها.

المطلب الرابع: الأصل الديني والأصل المذهبي.

المطلب الأول: أركان الإيمان عند أهم الفرق الإسلامية.

أولاً: أهل السنة.

اتفق جمهور أهل السنة على أن أصول الدين (أركان الإيمان) ستة، وهي:

١ – الإيمان بالله.

فريق إلى أن العمل لازم من لوازم الإيمان، وليس دخيلاً فيه.

والأصل في تسمية هذا الدين بالإسلام قوله تعالى: ﴿وَمَرْضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]

– بعد أن فرغنا من تعريف (أصول الدين) باعتباره مركباً إضافياً، نعرض تعريفاته باعتباره اسماً لعلم مخصوص من علوم الدين، وهو: [علم أصول الدين].

(وهو علم يُقْتَدَرُ معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج، ودفع الشبه).

والمراد بالعقائد ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام^(١).

المبحث الثاني: أصول الدين الإسلامي، [أركان الإيمان].

المراد بأصول الدين: هي القواعد التي يرتكز عليها الدين، والأسس التي يقوم عليها الإيمان بحيث إذا فقدت أو فقد إحداها لا يكون إيمان، والتي يطلق عليها أركان الإيمان.

وقد اختلف المسلمون فيما يعتبر من الأصول من تلك الأركان وما لا يعتبر منها، ولذا سأذكرها عند أهم الفرق الإسلامية، ثم نبين ما اتفقوا على اعتباره منها وما انفردت به كل فرقة، وسيتكون هذا المبحث من المطالب التالية:

المطلب الأول: أركان الإيمان عند أهم الفرق الإسلامية.

المطلب الثاني: أصول الدين [أركان الإيمان] التي أجمع عليها المسلمون.

المطلب الثالث: الأصول المختلف فيها.

المطلب الرابع: الأصل الديني والأصل المذهبي.

المطلب الأول: أركان الإيمان عند أهم الفرق الإسلامية.

أولاً: أهل السنة.

اتفق جمهور أهل السنة على أن أصول الدين (أركان الإيمان) ستة، وهي:

١ – الإيمان بالله.

٢ - الإيمان بالملائكة.

٣ - الإيمان بالكتب السماوية.

٤ - الإيمان بالرسول.

٥ - الإيمان باليوم الآخر.

٦ - الإيمان بالقدر خيره وشره.

الركن الأول: الإيمان بالله تعالى.

وهو أن يعتقد الإنسان بوجود الله عز وجل، ووحدانيته، وأنه لا مثيل له، ولا شبيهه، وأنه منفرد بكل صفات الكمال من عدل وحكمة وعلم... منزّه عن كل صفات النقص من ظلم وسفه ونقص، قال تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة.

الملائكة أجسام نورانية، لهم قوة خارقة لا تدانيها قوة البشر، ولهم وظائف يؤدونها بصدق وإخلاص، وهم معصومون عن الخطأ عمداً وسهواً، قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ووجود الملائكة ثابت بالدليل القطعي من الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿أَمَّنَ

الرَّسُولُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

وليس الإيمان بالملائكة مستحيلاً عند العقل، بل هو من الممكنات التي يجوز العقل وجودها: (ومن هنا كان إنكار وجودهم كفراً بإجماع المسلمين، بل بنص قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١٣٦) فالإيمان بنبوّة محمد ﷺ ونزول القرآن عليه يستلزم الإيمان بالملائكة، فإنكار وجودهم إنكار للنبوّة وللقرآن معاً (١).

الركن الثالث: الإيمان بالكتب المنزلّة.

ما من شك في أن كل رسول بعث لأمة كانت لديه تعاليم سماوية تهدف إلى تنظيم علائق أفراد تلك الأمة بالخالق، ثم تنظيم حياة الأفراد وعلاقتهم ببعض، وبالأُمم والشعوب الأخرى، وقد ذكر لنا القرآن الكريم أسماء تلك الكتب التي تضمنت التعاليم الإلهية منها صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى.

(١) كبرى اليقينيّات الكونية، ص ٢٩٢ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

وقد دعانا الإسلام إلى التصديق بهذه الكتب وبجميع ما أنزل جملة، لكنه . تعالى . ألزمننا العمل بكتابه الكريم لأنه متضمن لجميع التعاليم الإلهية، محتوٍ لتلك الكتب، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨) .

الركن الرابع: الإيمان بالرسول.

اقتضت حكمة الله . تعالى . أن يبعث في كل أمة رسولاً، يعلمهم الكتاب والحكمة ويدعوهم إلى عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، ومن أجل وحدة دعوة الرسل هذه، دعا الإسلام أتباعه إلى التصديق بجميع رسل الله . في الجملة . وعدم إنكار نبوة أحد منهم، قال تعالى: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، كما أمر الإسلام أتباعه باعتقاد أن هؤلاء الرسل كانوا متصفين بأفضل الصفات البشرية من أمانة وصدق وذكاء، منزهين عن الرذائل والنقائص من خيانة وكذب وغباء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٣)

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

وهو أن يعتقد الإنسان بوجود حياة أخرى غير هذه الحياة، وذلك بعد أن يبعث الله - تعالى - الخلائق بعد موتهم للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (النجم: ٣١). وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ (الأنعام: ٣١)، وقال تعالى: ﴿فَاتَّاهُمُ اللَّهُ نُوَابَ الدُّثْيَا وَحُسْنُ نَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران/ ١٤٨) .

الركن السادس: الإيمان بالقدر.

بعدما اقتضت حكمته . تعالى . خلق العباد، لم يتركهم هملاً بل أرسل إليهم رسلاً مبشرين، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مَّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥) .

وأنزل عليهم كتبه فبين لهم عقبي الهداية وعاقبة الغواية، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠) وبعد أن بين لهم ذلك .. منحهم إرادة مستقلة تتصرف في حرية تامة، فتأتي ما تشاء وتدع ما تشاء من الأفعال، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) لكنه سبحانه أحصى أعمال خلقه وعرف بعلمه الواسع الذي لا يحيطه شيء ما سيفعلونه من خير أو شر، وما سيكون منهم من هداية أو ضلال، وسجل ذلك كله في كتاب، قال تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (الكهف: ٤٩)، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (آل عمران: ٥).

- فالقضاء هو: (علم الله المحيط بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم الحساب والجزاء).

- والقدر هو: (وقوع الحوادث في الأزمنة والأشخاص طبقاً لما في علم الله جلّت حكمته).

ومعنى الإيمان بهما، هو: الاعتقاد بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر حسب تقدير الله تعالى وعلمه. ومما يجدر التنبيه عليه أن علم الله بما سيقع من عباده ووقوعه منهم حسب هذا العلم والتقدير، لا يعني أن العباد مجبرون في أفعالهم، ملزمون بالإتيان بها وإلا بطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والوعد والوعيد، بل الإنسان هو الذي يخط أفعال بنفسه متخذاً الطريق الذي يراه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨).

أما أصول الإسلام عند أهل السنة، - أي أركانه - فهي ما وردت في الحديث الشريف: ((بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله، إقام الصلاة، إيتاء الزكاة، صوم رمضان، حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً))^(١).

ثانياً: الشيعة الإمامية.

اتفق جمهور الشيعة الإمامية الإثني عشرية على أن أصول الدين (أركان الإيمان) خمسة وهي:

١ - التوحيد.

٢ - العدل.

٣ - النبوة.

٤ - الإمامة.

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان/ اللؤلؤ والمرجان في ما اتفق عليه الشيخان ص ٣-٤.

٥ - المعاد.

الأصل الأول: التوحيد:

وهو الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له، وللتوحيد أربعة أقسام:

- ١ - توحيده في الذات، وهو الاعتقاد بأن الله سبحانه لا شريك له في وجوب الوجود لذاته.
- ٢ - توحيده في الصفات، وهو الاعتقاد بأنه لا نظير له في صفاته، وأنها عين الذات.
- ٣ - توحيده في الربوبية والفعل، وهو الاعتقاد بأن لا مؤثر في الوجود إلا الله، فهو الخالق والرازق والمحيي والمميت . . . إلخ.

٤ - توحيده في الألوهية والعبادة، وهو أن يعبد وحده ولا يشرك بعبادته أحد، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾

وَكَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (النساء: ٣٦)، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (المؤمنون: ٣٢)

الأصل الثاني: العدل:

العدل في اللغة ضد الظلم، ويرادفه في ذلك الحق، والإنصاف، وقد فسر الظلم في اللغة بعدة معان، منها وضع الشيء في غير محله، ومنها انتقاص الحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ تَظْلِمُ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً.

أما الظلم في الاصطلاح الشرعي فأصله الانتقاص من قوله تعالى: ﴿وَكَمْ تَظْلِمُ مِنْهُ شَيْئًا﴾ فالظلم على هذا انتقاص الحق، قال الشيخ الطبرسي: (وإنما لا يختار الله الظلم ولا يجوز عليه الظلم، لأنه عالم بقبحه مستغن عنه، وعالم بغناه عنه، وإنما يختار القبيح من يختاره لجهله بقبحه أو لحاجته إليه لدفع ضرر، أو لجر نفع، أو لجهله باستغنائه عنه، والله تعالى منزّه عن جميع ذلك وعن سائر صفات النقص والعجز)^(١).

الأصل الثالث: النبوة:

النبوة وظيفة إلهية يخصص الله بها من يشاء من عباده، وهي لطف من الله بعباده، والمقصود باللفظ هنا هو ما يكون معه العبد أقرب إلى الطاعة وأبعد عن المعصية، والرسول يحقق تلك الفائدة، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلُكُمْ لَكُنَّا مِنْهُمْ بَعْدَآبٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَمْرُ سُلَيْمَانَ إِلَيْنَا رَسُولٌ﴾ (طه: ١٣٤) فلا بد والحالة

هذه من أن يرسل إليهم رسولاً ليبين لهم الأحكام، ويعرفهم الحلال من الحرام، ويقيم الحدود وينصف المظلوم من الظالم، ويحكم بين الناس بالعدل ﴿لَنَلَايَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ (النساء: ١٦٥) والواجب على المسلم هو الإيمان بجميع رسل الله . في الجملة . والإيمان بنبوة محمد ﷺ خاصة إذ هو المعتبر أصل من أصول الدين الإسلامي.

الأصل الرابع: الإمامة:

وهي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص نيابة عنه ﷺ ، ويعتقد الشيعة أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، فكذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصبه إماماً للناس من بعده، للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقوم بها، سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي، وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي، فالنبي مبلغ عن الله، والإمام مبلغ عن النبي^(١).

الأصل الخامس: المعاد:

ومعناه أن يعيد الله الخلائق بعد الموت إلى الحياة لتجزى كل نفس بما تسعى، ويجب على المسلم أن يعتقد بأن الله يعيد الخلائق بعد الموت بأجسامهم وأرواحهم وعلى صورهم التي كانوا عليها في دار الدنيا للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨)^(٢) **ثالثاً: المعتزلة.**

اتفق المعتزلة على أن أصول الدين (أركان الإيمان) خمسة وهي:

- ١ - التوحيد.
- ٢ - العدل.
- ٣ - المنزلة بين المنزلتين.
- ٤ - الوعد والوعيد.
- ٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣).

الأصل الأول: التوحيد:

(١) أصل الشيعة وأصولها، ص ٩٨ للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء.
(٢) انظر هذه الأصول في كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الجلي وعقائد الأمامية للزنجاني.
(٣) انظر هذه الأصول في شرح الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد.

هذه من أن يرسل إليهم رسولاً ليبين لهم الأحكام، ويعرفهم الحلال من الحرام، ويقيم الحدود وينصف المظلوم من الظالم، ويحكم بين الناس بالعدل ﴿لَنَلَايَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ (النساء: ١٦٥) والواجب على المسلم هو الإيمان بجميع رسل الله . في الجملة . والإيمان بنبوة محمد ﷺ خاصة إذ هو المعتبر أصل من أصول الدين الإسلامي.

الأصل الرابع: الإمامة:

وهي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص نيابة عنه ﷺ ، ويعتقد الشيعة أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، فكذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصبه إماماً للناس من بعده، للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقوم بها، سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي، وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي، فالنبي مبلغ عن الله، والإمام مبلغ عن النبي^(١).

الأصل الخامس: المعاد:

ومعناه أن يعيد الله الخلائق بعد الموت إلى الحياة لتجزى كل نفس بما تسعى، ويجب على المسلم أن يعتقد بأن الله يعيد الخلائق بعد الموت بأجسامهم وأرواحهم وعلى صورهم التي كانوا عليها في دار الدنيا للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨)^(٢) **ثالثاً: المعتزلة.**

اتفق المعتزلة على أن أصول الدين (أركان الإيمان) خمسة وهي:

- ١ - التوحيد.
- ٢ - العدل.
- ٣ - المنزلة بين المنزلتين.
- ٤ - الوعد والوعيد.
- ٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣).

الأصل الأول: التوحيد:

(١) أصل الشيعة وأصولها، ص ٩٨ للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء.
(٢) انظر هذه الأصول في كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الجلي وعقائد الأمامية للزنجاني.
(٣) انظر هذه الأصول في شرح الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد.

وهو إنكار التعدد والاعتقاد بأن الله واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفيًا وإثباتًا على الحد الذي يستحقه، والإقرار به، ولذلك اشتدوا في حربهم للشنوية من الفرس القائلين بمبدأين هما النور والظلمة، كما أنكروا الصفات القديمة الزائدة على الذات فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حيّ بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة^(١).

الأصل الثاني: العدل:

ومعناه أن الله عادل، وأن عدله - ما دام قد كلف الإنسان - أن يجعل له قدرة وإرادة بحيث يكون الإنسان المحدث لأفعاله المسؤول عنها ولا يكون لله دخل في ذلك، وهذا الأصل موجه ضد الجبرية القائلين بأن الله خالق كل شيء وفاعل كل شيء بما في ذلك أفعال الإنسان، بحيث يكون الإنسان مجبراً كأي شيء في الطبيعة.

الأصل الثالث: المنزلة بين المنزلتين:

ومعناه أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً كما تقول المرجئة، وليس كافراً كما يقول الخوارج، وإنما هو في منزلة بين الكفر والإيمان، وهي منزلة الفسق.

الأصل الرابع: الوعد والوعيد.

ومعناه أن الله سيفعل ما وعد به وتوعد عليه، فقد وعد سبحانه المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والمقصود بالأمر بالمعروف: إيقاع المعروف. وبالنهي عن المنكر: زوال المنكر، وهذا الأصل يقضي بمجاهدة كل من خالف حكم الله أو أمره ونهيه.

المطلب الثاني: أصول الدين [أركان الإيمان] التي أجمع عليها المسلمون.

تبين مما مر أن أصول الدين التي أجمع عليها المسلمون على اختلاف فرقهم ومذاهبهم، والتي لا يكون إيمان بدونها، وهي:

أولاً: الاعتقاد، إجمالاً بوجود الله، وبجميع صفاته الشوتية الراجعة إلى أنه متصف بجميع صفات الكمال، وبجميع صفاته السلبية الراجعة إلى تنزهه عن جميع صفات النقص، ولا يلزم الاعتقاد بذلك تفصيلاً.

(١) انظر الملل والنحل ج ١، ص ٤٤ للشهرستاني، ومذاهب الإسلاميين ج ١، ص ٤٧-٥٨ للدكتور عبد الرحمن بدري.

ثانياً: الاعتقاد بنبو محمد ﷺ، وأنه صادق فيما بلغه عن ربه إجمالاً.

ثالثاً: الاعتقاد بالبعث والحساب والثواب والعقاب.

وجملة القول: أنه يعتبر مؤمناً ومسلماً كل من دان بهذه الأصول الثلاثة وصدق إجمالاً بكل ما جاء به الرسول ص ولم ينكر شيئاً مما علم من الدين بالضرورة، كالإيمان بالملائكة والكتب السماوية، والرسول السابقين، والصلاة والزكاة والحج، وما إلى ذلك من فروض الدين التي ثبتت بالدليل القطعي من الكتاب والسنة، ويعتبر كافراً كل من لم يعتقد بأحد هذه الأصول، أو أنكر ضرورياً من ضروريات الدين.

المطلب الثالث: الأصول المختلف فيها.

كانت تلك أصول الدين المجمع عليها، أما ما ذكر من أصول غيرها فلا تخلو إما أن تكون راجعة إلى تلكم الأصول، ولكن بعض الفرق جعلتها أصولاً مستقلة، إما لاعتبارات خاصة بها، وإما لورود دليل لديهم ينص على استقلاليتها وعدم اندراجها تحت أصل آخر، فمثلاً:

الإيمان بالملائكة، والكتب السماوية، والرسول التي هي أصول مستقلة عند أهل السنة يمكن اندراجها تحت الإيمان بالرسول لأنها مما جاء به، وأخبر عنه فقد عرفت أن الإيمان بها شرط لتحقيق الإيمان والإسلام عند جميع الفرق الإسلامية، وأن منكر ذلك وغيره مما علم من الدين بالضرورة^(١) يعتبر كافراً بإجماع المسلمين، لأن إنكاره يستلزم إنكار نبوة محمد ﷺ والقرآن الذي أنزل عليه.

وأما الإيمان بالقدر خيره وشره فهو أصل مذهبي عند أهل السنة موجه ضد الجهمية القائلين بالجبر المطلق، والمعتزلة القائلين بالتفويض (الإرادة الإنسانية الحرة)، والشيعة القائلين بأمر بين الأمرين.

والعدل الإلهي الذي هو أصل مستقل عند كل من الشيعة والمعتزلة مندرج تحت الأصل الأول (التوحيد) فقد عرفنا أنه يجب على المؤمن الاعتقاد بوجود الله، وبأنه متصف بجميع صفات الكمال التي منها العدل، وبأنه منزّه عن جميع صفات النقص التي منها الظلم.

وأما الوعد والوعيد الذي هو أصل مستقل عند المعتزلة فيمكن إرجاعه إلى العدل الذي هو صفة كمال الله تعالى. ذلك لأنه تعالى إذا وعد المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب، فلا بد من أن يفعل ولا

(١) الضروري في اللغة بمعنى البديهي، وأما في الاصطلاح فقد عرّفه بعضهم بما لا يشتبه على أحد من أهل الدين. وبعض: بأنه ما لا تخفى شرعيته على من يتدين بالدين. وثالث: بأنه ما كان ضروري الصدور عن النبي ﷺ والضروري قد يحصل من التواتر المفيد للعلم، وقد يحصل من التسامع والنظائر كما في أخبار وجود البلدان، أو من القران المفيدة للقطع، ولا فرق في ضروري الدين بين أن يكون أمراً عقائدياً، أو عملياً كالصلاة، فإن كلا الأمرين يوجب إنكاره الكفر والخروج من الدين.

يخلف في وعده ولا في وعيده، ومن العدل أن لا يخلف ولا يكذب^(١).

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي اعتبره المعتزلة أصلاً مستقلاً فهو مما علم ضرورة من الدين، وقد عرفنا أن عدم إنكار ذلك شرط في تحقق الإسلام والإيمان عند جميع المذاهب، فوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وأما السنة فقوله عليه وسلم ((والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعونه ولا يستجيب لكم))^(٢) وأما الإجماع فلا إشكال فيه، لأن المسلمين متفقون على ذلك. وأما المنزلة بين المنزلتين فهو أصل مذهبي عند المعتزلة ومعناه أن لمرتكب الكبيرة اسماً بين الاسمين وحكماً بين الحكمين، وهو موجه ضد الخوارج الذين قالوا بكفره، والمرجئة الذين قالوا بإيمانه. والإمامة، كما عليه محققو الشيعة الإمامية ليست من أصول الدين، أي أركان الإيمان، ولا من أصول الإسلام، وإنما هي أصل مذهبي من أصول مذهب التشيع، بمعنى أن من أنكرها لا يكون شيعياً - لا أنه لا يكون مؤمناً ولا مسلماً^(٣).

المطلب الرابع: الأصل الديني والأصل المذهبي.

تبين لنا أن من أصول العقيدة ما هو أصل ديني بمعنى أنه معلوم عند أتباع الدين جميعاً كالتوحيد، والنبوة، ومنها ما هو أصل مذهبي بمعنى أنه معلوم عند جميع أهل مذهب من المذاهب الإسلامية كالإيمان بالقدر عند جمهور أهل السنة، والمنزلة بين المنزلتين عند المعتزلة، والإمامة عند جمهور الشيعة الإمامية. والفرق بين الأصل الديني والأصل المذهبي هو:

أن الأصل الديني: ما يستلزم إنكاره الكفر والخروج من الدين، أما الأصل المذهبي: ما يستلزم إنكاره الخروج من المذهب، لا الكفر والخروج من الملة إذا كان معتقداً بصحة صدوره عن النبي محمد عليه وسلم لأن إنكاره له حينئذ يكون إنكاراً لأصل ديني وهو يستلزم الكفر والخروج من الدين. وبعد أن عرفنا ماهية علم أصول الدين، وماهي الأصول المتفق عليها، وماهي الأصول المختلف فيها، سنخصص فصلاً لكل أصل متفق عليه نتناوله بشيء من التفصيل.

(١) شرح الأصول الخمسة مر ١٢٣ للقاضي عبد الجبار.

٢ - رواه الترمذي وحسنه في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ج ٤ ص ٦٨٤

(٣) أصول الدين الإسلامي ص ٢٥ للشيخ محمد علي ناصر، والإسلام والخلافة لنا ص ٤٨-٥٠.

ودليل العناية والاختراع هو الذي ذكره بعض فلاسفة الغرب باسم الدليل الغائي أو برهان الغاية، الذي يتخذ من المخلوقات دليلاً على وجود الخالق. وهذه المخلوقات تدل على قصد في تكوينها، وحكمة في تسييرها وتديرها، فالنظام والقصد والانسجام والحكمة الظاهرة في الطبيعة ومظاهرها المختلفة المتنوعة، طريق ظاهرة لإثبات وجود الله تعالى^(١).

المبحث الثاني: الإلحاد وأسبابه.

المطلب الأول: [لا محل للإلحاد في الذهن المتفتح]

عبارة مختصرة لخصت تجربة طويلة ومعقدة لعلماء عرفوا بمنهجهم العلمي الموضوعي المتجرد، قال الدكتور جون كليفلاند كوثران:

[قال لورد كيلفي^(٢) هذه العبارة القيمة: (إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله)، ولا بد أن أعلن عن موافقتي كل الموافقة على هذه العبارة]^(٣).

ويقول الفيلسوف الإنجليزي بيكون: (إن قليلاً من الفلسفة يقرب الإنسان من الإلحاد، أما التعمق في الفلسفة فيرده إلى الدين)^(٤).

وقال الدكتور وتز عميد كلية الطب بباريس وعضو أكاديمية العلوم وكيميائي: (إذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتي بالله قد تزعزعت، رجعت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها). وقال باسكال: (صنفان فقط من الناس يجوز أن نسميهم عقلاء: الذين يعرفون الله، والذين يَجِدُّون في البحث عنه، لأنهم لا يعرفونه).

وقال أينشتاين: (إن الإيمان هو أقوى وأنبّل نتائج البحوث العلمية)

وقال أيضاً: (إن الإيمان بلا علم، ليمشي مشية الأعرج. وإن العلم بلا إيمان، ليتلمس تلمس الأعمى).

وقال آدمون هربرت، وهو جيولوجي ذائع الصيت، ومدرس بجامعة السوربون:

(العلم لا يمكن أن يؤدي إلى الكفر، ولا إلى المادية، ولا يفضي إلى التشكيك)^(٥).

هذا هو الصواب، لأن الحق لا ينطلي على العلماء المتنورين، الذين يدركون الأدلة التي ذكرناها آنفاً،

(١) الله - العقاد ١٩٦ - ١٩٧ ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية د. عرنان ص ١٧٩.

٢ - وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم

(٣) الله يتجلى في عصر العلم ص ٢١ وقريب من هذا ما قاله العالم الطبيعي (اوليفر وندل) ص ٥٢.

(٤) المصدر السابق ص ٣٥.

(٥) الطب محراب الإيمان ص ٣٥٧. وروح الدين الإسلامي لطبارة ص ٦١.

والتي تثبت وجود الله سبحانه وتعالى.

أما الذين ينكرون وجود الله، بحجة أنهم لم يدركوه، بحواسهم، فهؤلاء يتصورون بأن الحواس هي طريق المعرفة، ولكن واقعهم يكذبهم، فهم: يؤمنون بالجاذبية والمغناطيسية والكهربائية، وبوجود الإلكترون والبروتون والنيوترون وبالعقل، ولم يروا شيئاً منها، بل رأوا آثارها فقط. فمن أنكر وجود الله تعالى بحجة أنه لم يره، وآمن بما ذكرت، فما هو إلا مخادع لنفسه، لأن العقل هو الذي أدرك هذه الأمور وغيرها وليست الحواس، لأنها خادعة أحياناً، وما الحواس إلا آلات أعطت العقل الحكم ليصدر حكمه.

المطلب الثاني: أسباب الإلحاد:

الاعتقاد بوجود الله تعالى، هو اعتقاد الفطرة التي فطر الناس عليها، وهو أساس كل جزيئة يشتمل عليها الدين الإسلامي، أما الإلحاد فهو طارئ على الفطرة، وقد حدد القرآن الكريم أسبابه، بما يأتي:

الكبر: قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْهُمْ عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (الفرقان: ٢١-٢٢).

ففي الآية بيان: أن الكبر وحده هو الذي دفعهم إلى تصور الحياة هي كل شيء، وليس وراءها إلا العدم.

الانحراف: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَٰمَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ (غافر: ٣٦-٣٧)، ففي الآية بيان: أن طريق فرعون طريق خاطئ، دفعه إليه انحرافه عن الطريق السوي، الذي يعرف به الله سبحانه وتعالى.

الظلم: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَمَرَنَا اللَّهُ جَهْرًا فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ (النساء: ١٥٣).

فبكلمة (بظلمهم) تبين أن الذي دفعهم إلى أن يطلبوا مثل هذا الطلب، هو الظلم، ظلم النفوس للحق، إذ تعرفه وتنكر له.

وهذا الظلم (غير العدل) هو الذي دفع الكفار إلى اتهام المؤمنين بالله بأنهم: متوهمون وكاذبون وعاطفيون ... وهذا ما نراه اليوم من اتهامهم بأنهم: غير علميين غير صادقين، مشوشون، مخدوعون.

الجهل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ

﴿قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة: ١١٨)، ففي الآية بيان أن هذا القول كلام جهال غير عالمين، وأنه ليس بجديد، بل هو منطق الكافرين دائماً، لتشابه قلوبهم، وقررت أن الطريق إلى الله هي آياته وآثاره الدالة عليه^(١).

والعلم لم يدع في يوم ما إلى الكفر والإلحاد، لأنه يتبع المنهج السليم في الوصول إلى حقائق الوجود ومظاهر الكون، ولم يقل في يوم أن هذا النظام الذي يجري عليه العالم قد نشأ صدفة، لأن الصدفة فوضى، والعالم الذي حلل في المختبر، أو عاش مع المنظار والمرصد، أو تعامل مع الأعداد... لا يعترف إلا بالنظام، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، ويقطع متيقناً بأن قوانين الطبيعة كالجاذبية والكهرباء واللاسلكي... وغيرها من ملايين الصور، ما هي إلا آثار على المؤثر وهو الله سبحانه وتعالى. وقد أكد العلماء هذا الجانب بشكل جلي.

يقول د. ماريت شانلي كونجدين، أحد كبار علماء الطبيعة في العالم: (إن جميع ما في الكون يشهد بوجود الله، ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراساتها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته).

والعلماء الذين كفروا بالله تعالى، لم يكن كفرهم نتيجة بحث علمي دقيق، وإنما كان لأمر منها:

١ - موقف الكنيسة التعسفي من العلماء وعدم تشجيعها الفكر الحر، إذ حكمت على المخالفين منهم بالكفر والزندقة، ونفذت بكل همجية حكم الإحراق والتمثيل والقتل بالعشرات منهم، وأحرقت كتبهم، وهددت بالقتل كل من وجد بحوزته.

وفي كتاب (قصة النزاع بين الدين والفلسفة) الدكتور توفيق الطويل قوائم بأسماء العلماء الذين أُعدموا بهمجية تفوق الخيال، حتى استقر في ذهن بعض العلماء أن الدعوة إلى الإلحاد أمر ضروري لإنقاذ العلماء من تلك الوحشية.

والحق إن إلحاد هؤلاء لم يكن مبدأ، وإنما كان موقفاً اتخذوه أمام الكنيسة، حتى إذا زال ذلك الكابوس تراجعوا إلى القول بالإيمان، بدليل إن عدد المؤمنين بالله من العلماء، الآن يتزايد يوماً بعد آخر.

٢ - موقف الكنيسة الظالم من الكادحين والأرقاء والمظلومين، وكونها بجانب الملوك والمستبدين والإقطاعيين، وكون البابوات هم أصحاب السلطة الحقيقية وأصحاب المال وأصحاب صكوك الغفران...

(١) الله: سعيد حوى ط ٣، ص ١١-١٣.

هذا الموقف دفع الكثير من المفكرين إلى الدعوة إلى نبذ الكنيسة، وإلى الإلحاد لإنقاذ المغلوب على أمرهم، مما يعانون به من شقاء وعبث.

٣ - تغلغل اليهودية العالمية عن طريق الماسونية، التي كانت تتبنى الإلحاد لهدم مقاومة المجتمع المسيحي والسيطرة عليه، وهذا الاتجاه الماسوني الملحد ظهر واضحاً في جماعة (الأنسكلوبيديا) وأتباعهم وتلامذتهم، وقد قامت الثورة الفرنسية على أكتاف هؤلاء.

٤ - الإلحاد في كل زمان ومكان طريق للإباحية والتملص من المثل العالية، لذلك كان ملاذ أصحاب الشهوات والمنحرفين عن الخلق الرفيع.

ومجمل القول: فالإلحاد لم يكن موقفاً أصيلاً للعلم وإنما أحدثته ظروف خاصة، أما المنهج العلمي فهو منطلق الإيمان بالله (جل جلاله) ومعرفته وتقديره حق قدرة^(١).

المبحث الثالث: الصفات الإلهية.

قسم بعض علماء الكلام الصفات الإلهية إلى ما يأتي:

١ - الصفة النفسية، الوجود.

٢ - الصفات السلبية، وهي خمس: القدم، البقاء، مخالفة الحوادث، القيام بالنفس، والوحدانية.

٣ - صفات المعاني، وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. واختلّفوا في صفة التكوين، على ما سيأتي بيانه في محله^(٢).

المطلب الأول: الصفة النفسية، (الوجود) ... [وجود الله عز وجل]

عرفها سعد الدين التفتازاني بأنها: صفة ثبوتية، يدل الوصف بها على نفس الذات، دون معنى زائد عليها. شرح التعريف:

(١) العلم ليس كافراً، د. محسن عبد الحميد نشر في مجلة التربية الإسلامية، العدد الثالث سنة ١٩٧٣، ص ٨ وما بعدها، ونشر أيضاً برسالة مستقلة. وأنظر: إحصائية ديترت في كتاب روح الدين الإسلامي، ص ٦٠ لطبارة، والطب محراب الإيمان ص ٢٥٦.

٢- وهنالك قسم رابع هو: «الصفات المعنوية وهي: كونه تعالى: قديراً، مريداً، عالماً، حياً، سمياً، بصيراً، متكلاً. وفيها خلاف بين العلماء لا نريد الدخول فيه سوى أن نقول: إنها نتائج لصفات المعاني.

انظر هذا التقسيم في: شرح الخريدة البهية للدردير أبي البركات وحاشية الصاوي عليها - مطبعة الاستقامة ص ٥٨ وما بعدها، وفي شرح الباجوري على جوهرة التوحيد - مصر سنة ١٩٦٤ ج ١ ص ٤٧ وما بعدها، وفي رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة - الشيخ كمال الدين الطائي، بغداد سنة ١٩٧٢ ص ٢٤ وما بعدها.

هذا الموقف دفع الكثير من المفكرين إلى الدعوة إلى نبذ الكنيسة، وإلى الإلحاد لإنقاذ المغلوب على أمرهم، مما يعانون به من شقاء وعبث.

٣ - تغلغل اليهودية العالمية عن طريق الماسونية، التي كانت تتبنى الإلحاد لهدم مقاومة المجتمع المسيحي والسيطرة عليه، وهذا الاتجاه الماسوني الملحد ظهر واضحاً في جماعة (الأنسكلوبيديا) وأتباعهم وتلامذتهم، وقد قامت الثورة الفرنسية على أكتاف هؤلاء.

٤ - الإلحاد في كل زمان ومكان طريق للإباحية والتملص من المثل العالية، لذلك كان ملاذ أصحاب الشهوات والمنحرفين عن الخلق الرفيع.

ومجمل القول: فالإلحاد لم يكن موقفاً أصيلاً للعلم وإنما أحدثته ظروف خاصة، أما المنهج العلمي فهو منطلق الإيمان بالله (جل جلاله) ومعرفته وتقديره حق قدرة^(١).

المبحث الثالث: الصفات الإلهية.

قسم بعض علماء الكلام الصفات الإلهية إلى ما يأتي:

١ - الصفة النفسية، الوجود.

٢ - الصفات السلبية، وهي خمس: القدم، البقاء، مخالفة الحوادث، القيام بالنفس، والوحدانية.

٣ - صفات المعاني، وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. واختلّفوا في صفة التكوين، على ما سيأتي بيانه في محله^(٢).

المطلب الأول: الصفة النفسية، (الوجود) ... [وجود الله عز وجل]

عرفها سعد الدين التفتازاني بأنها: صفة ثبوتية، يدل الوصف بها على نفس الذات، دون معنى زائد عليها. شرح التعريف:

(١) العلم ليس كافراً، د. محسن عبد الحميد نشر في مجلة التربية الإسلامية، العدد الثالث سنة ١٩٧٣، ص ٨ وما بعدها، ونشر أيضاً برسالة مستقلة. وأنظر: إحصائية ديترت في كتاب روح الدين الإسلامي، ص ٦٠ لطبارة، والطب محراب الإيمان ص ٢٥٦.

٢- وهنالك قسم رابع هو: «الصفات المعنوية وهي: كونه تعالى: قديراً، مريداً، عالماً، حياً، سمياً، بصيراً، متكلاً. وفيها خلاف بين العلماء لا نريد الدخول فيه سوى أن نقول: إنها نتائج لصفات المعاني.

انظر هذا التقسيم في: شرح الخريدة البهية للدردير أبي البركات وحاشية الصاوي عليها - مطبعة الاستقامة ص ٥٨ وما بعدها، وفي شرح الباجوري على جوهرة التوحيد - مصر سنة ١٩٦٤ ج ١ ص ٤٧ وما بعدها، وفي رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة - الشيخ كمال الدين الطائي، بغداد سنة ١٩٧٢ ص ٢٤ وما بعدها.

- صفة : جنس يدخل فيه سائر الصفات .
- ثبوتية : نسبة إلى الثبوت، لكونها ثابتة في الذهن، فتخرج الصفات السلبية كالقدم والبقاء
- بها : أي بالمشتق منها، لا بها بنفسها، لعدم صحة ذلك، فنقول: الله موجود، ولا نقول : الله وجود.
- على نفس الذات : أي أنها لا تدل على شيء زائد على الذات، فالذات نفسها لا نتعلل إلا بوجودها، ولذلك سميت نفسية، فتخرج صفات المعاني والمعنوية .
- دون معنى زائد عليها : تفسير للقول (على نفس الذات)^(١).
- وجود الله تعالى وجود كامل ذاتي، أي : أنه موجود لذاته، لا لعلة مؤثرة فيه، لأن من خصائص الذات : أنه لا يقبل العدم .
- أما وجود غيره (كل ما سوى الله تعالى) فهو وجود ناقص تبعي، أي: أنه مستمد من غيره، ومتوقف على من أوجده، لأن من خصائص التبعي: أنه لا بد أن يقوم بين عديمين سابق ولاحق(٢).
- ومسألة وجود الله تعالى سبق الكلام عنها مفصلاً في المطلب الأول (وجود الله جل جلاله) .
- المطلب الثاني: الصفات السلبية، وهي خمس:**

[القدم - البقاء - المخالفة للحوادث - القيام بالنفس - الوجدانية]^(٣).

وليس المراد بكونها سلبية، أنها مسلوقة عن الله ومنفية عنه، وإلا لزم أن يثبت له الحدوث وطرو العدم ومماثلة الحوادث، بل المراد بكونها سلبية: أن كل واحدة سلبت (نفت) أمراً لا يليق به جل وعز^(٤) فالقدم سلب لأولية الوجود، والبقاء سلب لآخرية الوجود ... وهكذا. والحق أن الصفات السلبية لا تنحصر في هذه الخمسة، إذ من جملتها: أنه لا ولد له، ولا زوجة، ولا بسيطاً، ولا مركباً، ولا في مكان، ولا زمان، ولا جهة، وغير ذلك ، وإنما اقتصر على هذه الخمسة، لأنها أهماتها^(٥). وهذه الصفات لم يختلف بها العلماء، بل يتفق الجميع على القول بها .

١ - صفة القدم: القدم في حقه تعالى بمعنى الأزلية، التي هي كون وجوده غير مستفتح، فليس معناه

- ١ - شرح الدردير على الخريدة وحاشية الصاوي عليه ص ٥٨ والباجوري على الجوهرة ج ١ ص ٤٩.
- ٢ - كبرى اليقينيات الكونية ص ١١٣.
- ٣ - حصرها بهذا الصدد: الباجوري في شرح الجوهرة ج ١ ص ٥٠ والدردير في شرح الخريدة ، والصاوي عليه ص ٥٨. والطائي في رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة ص ٢٥.
- ٤ الصاوي على الدردير ص ٧٦.
- ٥ - المصدر السابق ص ٦٠ والباجوري على الجوهرة ج ١ ص ٥٠.

تطاول الزمن، فإن ذلك وصف الحادثات^(١).

أو بعبارة أخرى، معنى القدم: هو أن وجود الله غير مسبوق بالعدم، فالله ليس له بداية^(٢).
 وضد القدم : الحدوث .

الدليل العقلي على قدمه تعالى:

إن الله تعالى لو لم يكن قديماً لكان حادثاً، إذ لا وسط بينهما، ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث يحدثه، ومحدثه يحتاج إلى محدث، وهكذا. فيلزم الدور أو التسلسل، وكل منهما محال، فوجب أن يكون قديماً^(٣).

الدليل النقلي على قدمه تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]

تصور صفة القدم: من السهل على الإنسان أن يفهم صفة الرحمة والعدل والجلال . . . في ذات الله تعالى، لأنه يفهم آثارها، ويستطيع أن يدرك معانيها في الحياة بحواسه، إلا أنه يستحيل عليه أن يدرك صفة القدم أو صفة البقاء، لأنه لا يحتفظ بصورة لها في الحياة، لأنها خاصة بذات الله تعالى، لكن لا تعني الاستحالة الخيالية إنكار هاتين الصفتين، لأن العقل يجزم بثبوتهما. كما بينا ذلك في الدليل العقلي.
 فرب أمر يدرك العقل إمكانه أو وجوده، وهو في الوقت نفسه يعجز عن تصوره وإدراك كنهه، وقديماً قال الفلاسفة وعامة العقلاء: (عدم الوجدان للشيء لا يستلزم عدم وجوده في الواقع)^(٤).

٢ - صفة البقاء:

ومعناه: أن الله تعالى أبدي، ليس لوجوده آخر، فيستحيل أن يلحقه العدم والفناء^(٥).
 وضد البقاء: الفناء .

الدليل العقلي على بقاءه تعالى:

١ - لو لم يكن الله تعالى باقياً، لكان فانياً، ولو كان فانياً لكان حادثاً، ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث، ومحدثه يحتاج إلى محدث . . . وهكذا، فيلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل، فثبت بقاءه تعالى.

١ - المسامرة على المسامرة ص ٢٢.

٢ - المصدر السابق وشرح ابن قطلوبغا على المسامرة (بهامش المسامرة) ص ٢٢

٣ - شرح المواقف ص ٤٧٠ والمسامرة ص ٢٢ وشرح الخريدة للدردير ص ٦٠ - ٦١ والباجوري على الجوهرة ج ١ ص ٥٠ والاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي، بيروت سنة ١٩٦٩ ص ٩٢.

٤ - كبرى اليقينية الكونية ص ١١٨ - ١١٩.

٥ - المسامرة ص ٢٤.

٢ - لو جاز عليه تعالى العدم لاستحال عليه القدم، وهو باطل لثبوت قدمه تعالى^(١).

٣ - لو جاز عدمه لاحتاج انعدامه بعد وجوده إلى علة، لاستحالة الترجيح بلا مرجح.

٤ - وإذا جاز انعدامه، فإما أن ينعدم:

أ - بنفسه (بأن يكون انعدامه أثراً لقدرته) وهو باطل، لأنه ثبت أنه علة وجود الموجودات، فلا يقبل الانتفاء بحال، فيلزم بقاءه كما يلزم قدمه.

ب - بمعدم يضاده، وهو باطل أيضاً، لأن الضد إما:

١ - قديم: فيلزم انتفاء الباري سبحانه معه من الابتداء أصلاً، لأن التضاد يمنع الاجتماع بين الشئيين اللذين اتصفا به، وقد ثبت وجوده تعالى.

٢ - أو حادث: فيلزم اندفاع وجوده بمضاده القديم، لأن القديم أقوى من الحادث^(٢).

الدليل النقلي على بقاءه تعالى:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهاَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص/ ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

٣ - صفة المخالفة للحوادث:

معناها: أن الله تعالى ليس مماثلاً لشيء من الحوادث الموجودة والمعدومة مطلقاً، فهي عبارة عن: سلب الجزئية، والعرضية، والكلية، والجزئية^(٣)، ولوازمها عنه تعالى، فلازم الجزئية هو التحيز، ولازم العرضية هو القيام بالغير، ولازم الكلية هو الكبر، ولازم الجزئية هو الصغر^(٤).
وضدها: المماثلة للحوادث.

الدليل العقلي على ذلك:

١ - أنه تعالى لو لم يكن مخالفاً للحوادث لكان مماثلاً لها، ولو كان مماثلاً للحوادث، لكان حادثاً

١ - الأذير على الخريدة والصاوي عليه ص ٦١.

٢ - المسافرة ص ٢٤ - ٢٥ وانظر: الاقتصاد في الاعتقاد ص ٩٢ والباجوري على الجوهرة ج ١ ص ٥١، والمواقف ص ٤٧٠.

٣ - أي ليس الله تعالى جرماً ولا عرضاً ولا كلاً ولا جزءاً.

٤ - الباجوري على الجوهرة ج ١ ص ٥٢.

مثلها، ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث، ومحدثه يحتاج إلى محدث ... وهكذا فيلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل، فثبتت مخالفته للحوادث .

٢ - كل من وجب له القدم، استحال عليه العدم، ولا شيء من الحوادث يستحيل عليه العدم، فلا شيء منها بتقديم فثبتت المخالفة^(١).

الدليل النقلي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

ونفي المماثلة يفيد الأمور الآتية :

١ - أنه تعالى ليس بعرض، لما يأتي:

أ - لأن الغرض يحتاج إلى جسم يقوم به، فيستحيل وجود العرض قبل الجسم، وقد ثبت أن الله موجد

ب - لأن احتياجه إلى شيء يقوم به علامة الحدوث .

٢ - وليس بجوهر:

أ. لأنه ملازم للعرض، والعرض حادث، فيلزم حدوثه .

ب. لأنه يوهم الترة التركيب والتحيز .

٣ - وليس بجسم:

لأن الجسم مؤلف من جواهر وأعراض، وقد أثبتنا حدوثهما فيما تقدم. وذلك خلافاً للمجسمة الذين

قالوا بأنه تعالى جسم حقيقة، لكنهم اختلفوا: فقال بعضهم: هو مركب من لحم ودم، وبعضهم: أنه نور

يتلألأ كالسيكة البيضاء، وبعضهم: على صورة إنسان شاب أمرد، وبعضهم: على صورة شيخ

أشمط^(٢) الرأس واللحية . . . تعالى الله عما يقولون .

٤ - وليست له صورة أو لون أو رائحة أو عوارض النفس من لذة وألم وفرح، لأن ذلك من خواص الأجسام.

٥ - ولا يوصف بالصغر أو بالكبر، (والكبر يراد به الحسي أما المعنوي فيوصف به كقوله تعالى:

﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

٦ - ولا متمكنا بمكان^(٣): وما جاء بالحديث القدسي: (مَا وَسَعَنِي سَمَائِي وَلَا أَرْضِي، وَلَكِنِّي وَسَعَنِي

١ - المصدر السابق .

٢ - أشمط : أبيض .

٣ - انظر: صفة القيام بالنفس، وحديث : «وما يزال عبيدي . . إلخ . رواه البخاري في كتاب الرقاق - التواضع . فتح الباري ج ١١ ص ٣٤٠ .

قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ^(١)، فيراد به: وسع هيبتي ورحمتي.

والحديث القدسي الآخر: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاذ بي لأعيذنه) فيراد به: الكناية عن استيلاء محبة الله على الشخص، حتى أغنته عن شهود سواه.

٧ - ولا مختصاً بجهة لما يأتي:

أ - لأن الجهات الست حادثة بإحداث الإنسان وغيره، فإن معنى الفوق: ما يحاذي رأس الإنسان، أو ظهر من يمشي على أربع من جهة العلو، وهي جهة السماء، ومعنى السفلى: ما يحاذيه من جهة الأرض.

ثم إن الجهات اعتبارية غير حقيقية فإن النملة إذا مشت على سقف، كان الفوق بالنسبة لها جهة الأرض، لأنها تحاذي ظهرها. ولو كان كل حادث مستديراً كالكرة، لم توجد واحدة من هذه الجهات.

ب - إن الله تعالى موجود في الأزل، ولم يكن شيء من المخلوقات، لأن كل ما سواه حادث، كما مر دليلاً.

ج - أن الاختصاص بجهة هو اختصاص بحيز، والحيز مختص بالجواهر والجسم، وقد مر تنزيهه عنهما.

فإن قيل: لم ترفع الأيدي إلى السماء؟ أجيب: بأن السماء قبلة الدعاء، كما أن الكعبة قبلة الصلاة، فهو تعالى غير مختص بجهة، خلافاً للكرامية: الذين أثبتوا الله جهة الفوق، من غير استقرار على العرش^(٢)، والمشبهة والمجسمة، الذين قالوا باستقراره على العرش، وهو باطل بإجماع العقلاء.

٨ - ولا يجري عليه زمان.

٩ - ولا تصح له الحركة والانتقال.

١٠ - ولا الاتصال في الذات: بأن يكون مركباً، تتصل أجزاؤها ببعضها أو بالغير: فهو ليس متصلاً بالعالم، بحيث يكون حالاً، أو سارياً فيه.

١١ - ولا الانفصال عن العالم، لأن هذه الأمور من صفات الحوادث، والله ليس بحادث.

١٢ - ولا الاتصاف بالألوان والأشكال، وذلك خلافاً للمشبهة، الذين شبهوا الباري بالمخلوقات.

١٣ - ولا الاتحاد ولا الحلول، خلافاً، للنصارى القائلين باتحاد جسده بجسد المسيح، ولغلاة الشيعة

١ - ذكره الغزالي في الإحياء بلفظ: قال الله لم يسعني، وذكره بلفظ: ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوداع، وقال مخرجه العراقي: لم أر له أصلاً، ينظر المقاصد الحسنة للسخاوي والدرر المنتثرة للسيوطي (١٧٥/١).

٢ - يثبت كثير من الحنابلة جهة العلو الله تعالى، واستواءه على العرش، مع قولهم بنفي التجسيم. انظر أدلتهم وأقوال العلماء في ذلك في: شرح العقيدة الطحاوية ٣ ص ٢٥١ وما بعدها، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني - جدة سنة ١٣٨٠ هـ ج ١ ص ١٩٠ وما بعدها.

القائلين بحلوله بعلي وأولاده، ولغلاة الصوفية القائلين بحلوله بالسالكين المنتهين في سلوكهم إلى النهاية^(١) والذي ذكرناه هو ما ذهب إليه في اعتقادهم جميع فرق الإسلام، من معتزلة وماتريدية وأشاعرة وشيعة، عدا من ذكرناهم من المشبهة والمجسمة وغيرهم .

النصوص الموهمة للمشابهة:

وردت في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة نصوص، تضيف إلى الباري صفات خبرية، توهم التشبيه، كالاستواء والمجيء والنزول . . . التي ستأتي بعد قليل.

فاختلفوا فيها على أقوال ثلاثة^(٢)، مع اتفاقهم على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وهي:

الأول: التوقف.

أي: التوقف الكامل من غير جنوح إلى التأويل أو سقوط في التشبيه، وهو مذهب السلف، فهؤلاء آمنوا بهذه الصفات الخبرية، وأجروها على ظاهرها، ولم يتعرضوا لمعناها يبحث ولا تأويل، مع تغليبهم أدلة التنزيه، لوضوح دلالتها، وكثرتها، وعلمهم باستحالة التشبيه، لذا قال كثير منهم : (اقرؤوها كما جاءت) أي: آمنوا بأنها من عند الله، ولا تتعرضوا لتأويلها ولا لتفسيرها^(٣).

- لأن التأويل أمر ظني بالاتفاق يحتمل الخطأ، لا يمكن أن تفسر به صفات الباري ، احترازاً من الوقوع في الزيف، فتفوض معانيها إلى الله تعالى وفسر الإمام مالك بن أنس، قوله تعالى في سورة طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه / ٥]، بقوله: (الاستواء معلوم، والإيمان به واجب ، والكيفية مجهولة، والسؤال عنها بدعة) .

وفي ذلك يقول ابن رشد: (إن الصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى، باستعمال هذه الأقاويل، دون تأويلات فيها) .

١- انظر : المسامرة ص ٢٥ و ٣١ وشرح قاسم بن قطلوبغا على المسامرة ص ٢٥ والمواقف وشرحه للجرجاني ص ٤٧٣ و ٤٧٤ و ٤٧٨ و الدردير والصاوي عليه ٦٣ و ٧٣ ومقاصد الطالبين وشرحه ج ٢ ص ٦٥ وما بعدها وعقائد الإمامية للشيخ المظفر، دار النعمان - النجف ص ٣٦.

٢ - ذكرها ابن الجوزي بقوله «إن إثبات الظاهر لا يخلو من أمرين، فإما أن يكون المراد من الظاهر الحقيقة وذلك تشبيه، لأن الإشارة الحسبة إليه جائزة، أو يكون المراد منه غير الحقيقة وذلك تأويل، وفي الحالتين فإن ذلك ليس بمذهب السلف الذي هو التوقف الكامل من غير جنوح إلى التأويل أو سقوط في التشبيه».. دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص ١٩٦ نقلاً عن دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي

٣ مقدمة ابن خلدون، مطبعة مصطفى محمد من ٤٦٣.

القائلين بحلوله بعلي وأولاده، ولغلاة الصوفية القائلين بحلوله بالسالكين المنتهين في سلوكهم إلى النهاية^(١) والذي ذكرناه هو ما ذهب إليه في اعتقادهم جميع فرق الإسلام، من معتزلة وماتريدية وأشاعرة وشيعة، عدا من ذكرناهم من المشبهة والمجسمة وغيرهم .

النصوص الموهمة للمشابهة:

وردت في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة نصوص، تضيف إلى الباري صفات خبرية، توهم التشبيه، كالاستواء والمجيء والنزول . . . التي ستأتي بعد قليل.

فاختلفوا فيها على أقوال ثلاثة^(٢)، مع اتفاقهم على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وهي:

الأول: التوقف.

أي: التوقف الكامل من غير جنوح إلى التأويل أو سقوط في التشبيه، وهو مذهب السلف، فهؤلاء آمنوا بهذه الصفات الخبرية، وأجروها على ظاهرها، ولم يتعرضوا لمعناها يبحث ولا تأويل، مع تغليبهم أدلة التنزيه، لوضوح دلالتها، وكثرتها، وعلمهم باستحالة التشبيه، لذا قال كثير منهم : (اقرؤوها كما جاءت) أي: آمنوا بأنها من عند الله، ولا تتعرضوا لتأويلها ولا لتفسيرها^(٣).

- لأن التأويل أمر ظني بالاتفاق يحتمل الخطأ، لا يمكن أن تفسر به صفات الباري ، احترازاً من الوقوع في الزيف، فتفوض معانيها إلى الله تعالى وفسر الإمام مالك بن أنس، قوله تعالى في سورة طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه / ٥]، بقوله: (الاستواء معلوم، والإيمان به واجب ، والكيفية مجهولة، والسؤال عنها بدعة) .

وفي ذلك يقول ابن رشد: (إن الصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى، باستعمال هذه الأقاويل، دون تأويلات فيها) .

١- انظر : المسامرة ص ٢٥ و ٣١ وشرح قاسم بن قطلوبغا على المسامرة ص ٢٥ والمواقف وشرحه للجرجاني ص ٤٧٣ و ٤٧٤ و ٤٧٨ و الدردير والصاوي عليه ٦٣ و ٧٣ ومقاصد الطالبين وشرحه ج ٢ ص ٦٥ وما بعدها وعقائد الإمامية للشيخ المظفر، دار النعمان - النجف ص ٣٦.

٢ - ذكرها ابن الجوزي بقوله «إن إثبات الظاهر لا يخلو من أمرين، فإما أن يكون المراد من الظاهر الحقيقة وذلك تشبيه، لأن الإشارة الحسبة إليه جائزة، أو يكون المراد منه غير الحقيقة وذلك تأويل، وفي الحالتين فإن ذلك ليس بمذهب السلف الذي هو التوقف الكامل من غير جنوح إلى التأويل أو سقوط في التشبيه».. دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص ١٩٦ نقلاً عن دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي

٣ مقدمة ابن خلدون، مطبعة مصطفى محمد من ٤٦٣.

وقد ظل هذا الرأي مستمراً إلى أيام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ)، ويحيى بن معين وإسحاق بن راهويه الذين ناصروه، إلا أنه لم يستمر طويلاً، لأنها تتضمن (الإحالة إلى مجهولات لا نفهم مؤداها ولا غاياتها) بل اعتبرها ابن حزم (مدخلاً لطريق ينتهي بالتشبيه) ^(١).

الثاني: التوغل في التشبيه:

فمنهم من شبه في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه . . .، فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة أي التنزيه المطلق.

ومنهم من شبه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك، قال قولهم إلى التجسيم، وذلك تمسكاً بالتفسير الحرفي للآيات والأحاديث الموهمة للتشبيه والتجسيم ^(٢) قال ابن الجوزي الحنبلي (وهو من نفاة التشبيه): (اعلم أن عموم المحدثين حملوا ظاهر ما تعلق من صفات الباري سبحانه على مقتضى الحس، فشبّهوا، لأنهم لم يخالطوا الفقهاء، فيعرفوا حمل المتشابه على مقتضى الحكم) ^(٣).

وهؤلاء فرق عديدة مثل: أصحاب الحديث الحشوية، ومنهم: مقاتل بن سليمان سنة (١٥٠ هـ) - المفسر، ومشبهة الشيعة ومنهم: هشام بن الحكم ت سنة ١٧٩ هـ، وفرقة الكرامية أتباع ابن كرام السجستاني ت سنة (٢٥٥) ^(٤).

الثالث: التأويل.

وهو ما ذهب إليه المعتزلة، وأخذ به - مع تعديلات طفيفة - عامة المسلمين من [شيعة]، [وأهل سنة: ماتريديّة وأشاعرة]، وفي ذلك يقول الإمام الرازي: (جميع فرق الإسلام مقرون بأنه: لا بد من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار) ^(٥).

وذلك لأنه ثبت عندهم بالدليل العقلي، أن الله تعالى منزّه عن الجسميّة والجهة، ولا سبيل للقضاء على التشبيه، إلا إذا (أولت) الصفات الخبرية الواردة بالنصوص .

١ دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص ١٩١ و ١٩٤ وقول ابن رشد في فصل المقال ط دار المعارف ص ٦٥.

٢ مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

٣ تلبيس إبليس لابن الجوزي، المطبعة المنيرية - الطبعة الثانية ص ١١٣.

٤ الملل والنحل للشهرستاني (بهامش الفضل) طبعة أونسييت المثنى ج ١ ص ١٣٧ وما بعدها. وانظر دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص ١٩٨ - ٢٠٠.

٥ أساس التقديس للرازي ص ٧٩ - القاهرة ١٩٣٥.

- وحين رأى العلماء أن فتح باب التأويل له أضراره الجسيمة، وضعوا له القواعد، حتى لا يؤدي إلى التلاعب بالنصوص وفق الهوى، دون الالتفات إلى أصول الشريعة ومقاصدها^(١).

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: (طريقة التأويل بشرطها، أقربهما إلى الحق) ويعني بشرطها: أن يكون على مقتضى لسان العرب^(٢).

ومن أمثلة تأويلات هؤلاء للنصوص المتشابهة بما يتفق وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به ما يوهم الجهة:

١ - قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]

الاستواء هو: الاستيلاء والملك، كقول الشاعر:

قد استوى عمرو على العراق من غير سيف ودم مهراق

٢ - قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥]

فالفوقية تعني: التعالي في العظمة، أي: أن الملائكة يخافون ربهم من أجل تعاليه وارتفاعه في العظمة.

٣ - قال تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]

فالعندية: تعني الاصطفاء والإكرام .

٤ - قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]

أي: يرتضيه لأن الكلم عرض، يمتنع عليه الانتقال.

٥ - قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَامُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]

أي: العروج إلى موضع يتقرب إليه بالطاعات فيه .

٦ - قال تعالى: ﴿الْمِثْقَالُ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]

من في السماء: أي حكمه وسلطانه، أو ملك موكل بالعذاب.

٧ - قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا قَدَّكَ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٨ - ٩]

الدنو: قرب الرسول إليه بالطاعة، والتقدير بقاب قوسين تصوير للمعقول بالمحسوس.

١- دراسات في الفرق (السابق) ص ٢٠٣ - ٢٠٤ وانظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٤، والمسائيرة ص ٣٤ وما بعدها والمواقف ص ٤٧٣.

٢- المسائيرة ص ٣٧.

٨ - قوله (ﷺ) للجارية الخرساء : «أين الله؟» فأشارت إلى السماء فقرر .

فأراد بالسؤال بـ(أين): أن يستكشف عن معتقدها، فلما أشارت إلى السماء، علم أنها ليست وثنية، وحمل إشارتها على أنها أرادت كونه تعالى خالق السماء، فحكم بإيمانها. ما يوهم الجسمية:

١ - قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

أي : وجاء أمر ربك الشامل للعذاب، أو عذاب ربك .

٢ - ﴿هَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]

أي : إتيان عذابه .

٣ - قوله (ﷺ) : «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»^(١).

أي : ينزل ملك ربنا فيقول عن الله .

ما يوهم الصورة:

قوله (ﷺ) : «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته» (٢) .

فقد أمر الرسول (ﷺ) من قاتل غيره أو ضرب عبده أن يجتنب الوجه إكراماً لآدم؛ لمشابهة المضروب له، فلا يضرب صورة خلقها الله بيده، فانتسب إلى هذا العبد^(٣)

ما يوهم الجوارح :

١ - قال تعالى: ﴿وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]

الوجه : أي الذات .

٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]

١- البخاري في كتاب الدعوات - باب الدعاء نصف الليل - فتح الباري ج ١١ ص ١٣٩ وفي كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى : (يريدون أن يبدلوا كلم الله) فتح الباري ج ١٣ ص ٤٦٤ .

وصحيح مسلم - واللفظ له - كتاب صلاة المسافرين - باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ج ١ ص ٥٢١ .

٢- مسند أحمد ج ٢ ص ٢٤٤ . والبخاري - كتاب الاستئذان - باب بدء السلام . / فتح الباري ج ١١ ص ٣ وصحيح مسلم - واللفظ له - كتاب البر - باب النهي عن ضرب الوجه ج ٤ ص ٢٠١٧

٣- ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال أبو الحسن علي (المتوفى: ٤٤٩ هـ) ج ٧ ص ٦٩

اليد: أي القدرة .

٣ . قوله صلّى الله عليه وسلم: «إن قلوب بني آدم كلها، بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء»^(١).

فالمراد بالإصبعين: أي صفتين من صفاته، وهما القدرة والإرادة^(٢).

وبهذا يتضح أن الجمهور من السلف والخلف، اتفقوا على تنزيه الله تعالى من التشبيه، إلا أنهم اختلفوا في طريقة تفسير النصوص المتشابهة تبعاً لعصورهم التي عاشوا بها، وهو خلاف شكلي بحث .

ولم يخالف في ذلك إلا المشبهة، الذين صوروا الذات الإلهية كالجسم، فأخذوا ينعنون بصفات الأجسام، وهؤلاء لا يعتد بكلامهم في ميزان النقد العلمي عند مقارنة النصوص، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي

أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]

٤ - صفة القيام بالنفس:

معنى القيام بالنفس شيان:

أولهما: عدم افتقاره إلى محل، وللمحل تفسيران:

١ - الذات التي يقوم بها، لا بمعنى المكان، لأن ذلك علم من مخالفة الحوادث.

٢ - الذات والمكان معاً، قاله الغنيمي.

ثانيهما: عدم افتقاره إلى المخصص، أي الموجد^(٣)، وضدها: الاحتياج إلى غيره.

الدليل العقلي على ذلك:

١ - الدليل على عدم افتقاره إلى مخصص:

إنه لو افتقر إلى مخصص، لكان حادثاً.... كيف وقد سبق وجوب وجوده وقدمه وبقائه ذاتاً وصفات؟

٢ - الدليل على عدم افتقاره إلى محل:

١- أخرجه مسلم - كتاب القدر - باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء ج ٤ ص ٢٠٤٥.

٢- انظر هذه التأويلات في: المواقف وشرحه ص ٤٧٣ والمسائرة ص ٣٥ - ٣٦ والباجوري على الجوهرة ج ١ ص ٨١ - ٨٤.

٣- الباجوري على الجوهرة ج ١ ص ٥٣.

أ - لو افتقر إلى محل، لكان صفة، ولو كان صفة، لم يتصف بصفات المعاني، وهي واجبة القيام به تعالى، للأدلة الدالة على ذلك، وذلك باطل فثبت عدم افتقاره إلى محل^(١).

ب - المتمكن محتاج إلى مكانه، بحيث يستحيل وجوده بدونه، والمكان مستغن عن المتمكن لجواز الخلاء، فيلزم إمكان الواجب، ووجوب المكان، وكلاهما باطل^(٢).

الدليل النقلي على ذلك: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّسُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

فإن قيل: كيف يتصور عدم تحيزه تعالى في مكان؟

فالجواب هو: أن تصور المكان لأي جسم، يكون نتيجة ملاحظة واستقراء أحوال الأجسام التي نراها حالة في مكان ما، أما قياس الله تعالى على الأجسام في وجود التحيز، فهو قياس باطل، ولا علة جامعة بين الأصل والفرع، وذلك: لأن العقل البشري محدود وقاصر عن إدراك كثير من الأمور، فهو يحكم بوجود أشياء كثيرة كالروح والعقل في الجسم والكهرباء في الأسلاك المعدة لجريانها بها ... إلخ، وإن لم يعرف حقيقتها أو كنهها ولا يدرك من سرها شيئاً.

فإذا كان العقل البشري قاصراً عن إدراك كثير مما فيه وحوله، فكيف يمكن أن يتصور عدم تحيزه تعالى في مكان؟ مع أنه قطع بوجوده تعالى، وقصر عن إدراك كنهه وتصوره وفهمه؟

فحسب الإنسان إذن أن يؤمن بوجوده تعالى وبصفاته، ثم يحار في فهمه وتصوره. وهذه هي حقيقة الإيمان بالغيب التي أمر الله به عباده^(٣).

٥ - صفة الوجدانية:

معناها: عدم التعدد في الذات أو الصفات أو الأفعال.

فالوجدانية في الذات: تنفي (الكم المتصل) الذي هو التركيب، أي: تركيب الذات من أجزاء، وتنفي (الكم المنفصل) الذي هو التعدد، بحيث يكون هناك إلهان فأكثر.

والوجدانية في الصفات: تنفي (الكم المتصل) الذي هو تعدد صفتين من جنس واحد كقدرتين فأكثر.

١- المصدر السابق والدردير في شرح الخريدة ص ٦٢.

٢- المواقف وشرحه ص ٤٧٢.

٣- كبرى اليقينيّات الكونية ص ١٢٠ - ١٢١.

وتنفي (الكم المنفصل) الذي هو إثبات صفة لغيره تعالى تشبه صفته، كأن يكون لزيد قدرة يوجد بها ويعدم كقدرته تعالى، أو إرادة تخصص الشيء ببعض الممكنات .
والوحدانية في الأفعال: تنفي (الكم المنفصل) فقط^(١)، الذي هو إثبات فعل لغيره تعالى على طريق الإيجاد والخلق^(٢).

ضدها: التعدد في الذات أو الصفات (اتصالاً وانفصالاً) وفي الأفعال (انفصالاً) .

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء/٢٢]

المطلب الثالث: صفات المعاني.

وهي: [القدرة – الإرادة – السمع – البصر – العلم]

١ - القدرة: هي صفة أزلية يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه^(٣)، وضدها العجز .

الدليل العقلي على ذلك:

أ. هو أنه تعالى لو لم يتصف بالقدرة، لكان عاجزاً، ولو كان عاجزاً، لما وجد شيء من هذه الحوادث المحكمة الصنعة المرتبة المتقنة، وعدم وجود شيء من الحوادث باطل بالمشاهدة .

ب. لو كان عاجزاً، لكان ناقصاً، والنقص على الإله محال .

ج. لو كان عاجزاً، لكان ناقصاً، ولو كان ناقصاً، لاحتاج إلى من يكمله، ومكمله يحتاج إلى مكمل آخر . . وهكذا فيلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل^(٤).

د. الله صانع قديم، له مصنوع حادث، وصدور الحادث عن القديم لا يتصور إلا بطريق القدرة، فالله تجب له القدرة^(٥).

الدليل النقلي: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَكَانَ فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]

١- أما الكم المتصل في الأفعال : فإن صورناه بتعدد الأفعال، فهو ثابت، لا يصح نفيه، لأن أفعاله كثيرة من خلق ورزق وإحياء . . . وإن صورناه بمشاركة غير الله له في فعل من الأفعال، فهو منفي أيضاً بوحدانية الأفعال، انظر : الباجوري على الجوهرة ج ١ ص ٥٤ والصاوي على الدردير ص ٦٤.

٢- انظر : الباجوري على الجوهرة ج ١ ص ٥٤ والدردير شرح الخريدة ٦٤ ورسالة في التوحيد والفرق المعاصرة للطائي ص ٣٩ - ٤٢.

٣ شرح الدردير على الخريدة ص ٧٨.

٤ المواقف وشرحه ص ٨١ وحاشية محمد محي الدين على المسابرة ص ٥٨.

٥ المقاصد وشرحه ج ٣ ص ٧٩ - ٨٠ والباجوري على الجوهرة ج ١ ص ٥٩.